بين سؤالين

تأليف الأستاذ الدكتور

سعيد أحمد جمعة

أستاذ البلاغة والنقد

عميدكلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات بالسادات- جامعة الأزهر الشريف

١٤٤٥/٢٠٢٣م

بين سؤالين

سعيد أحمد السيد جمعه

قسم البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالسادات ، جامعة الأزهر ، مصر

البريد الإلكتروني: Islam. so. g. dean@azhar.edu.eg

ملخص البحث

هذا البحث محاولة للكشف عن أثر الأدب في عرض السؤال في تحديد الإجابة، وكيف تؤثر طريقة العرض في العالم، فيجيب تارة بإسهاب، وأخرى باقتضاب، لذلك يقف هذا البحث أمام نموذجين من السائلين عن معاني الآيات القرآنية ليوضح هذا الأثر ، ويُظهر من خلال التحليل كيف يفتح السائل بسؤاله المهذب باب المعاني، حتى يمتلئ وعاؤه من العلم؟

وفي المقابل كيف يُغلق سؤالٌ آخر مفاتيح المعاني، فيرجع بخُفَّي حنين ؟.

فهذه الورقات تهدف إلى تعليم كل سائل أن هناك علاقة وثيقة بين الإجابة وطريقة السؤال، وعلاقة وطيدة بين شخصية السائل وطبيعة الإجابة ليتعلم كل طالب أن الإجمال في الطلب مفتاحٌ لخزائن العطاء، والإساءة في الطلب مغلاق لخزائن العطاء.

والنموذجان اللذان يدور حولهما البحث هما: سؤالات نافع بن الأزرق لسيدنا عبد الله بن عباس، وسؤال لسيدنا عروة بن الزبير للسيدة عائشة رضي الله عنها.

الكلمات المفتاحية: بين سؤالين ، السيدة عائشة ، عبد الله بن عباس، عروة بن الزبير.

Between two questions

Saeed Ahmed el Said Gomaa

Faculty of Islamic and Arabic language Studies, Sadat city, Al Azhar University, Egypt.

Islam. so. g. dean@azhar.edu.eg

Abstract

This research is an attempt to reveal the effect of literature in presenting the question in determining the answer, and how the method of presentation affects the world, answering sometimes at length and at other times briefly.

Therefore, this research stands before two examples of those asking about the meanings of Qur'anic verses to clarify this effect and show through analysis how the questioner opens with his polite question the door of meanings until his vessel is filled with knowledge.

And on the other hand, how does another question close the keys to meanings and return with a hidden nostalgia?

So these papers aim to teach every questioner that there is a close relationship between the answer and the way the question is asked, and a close relationship between the personality of the questioner and the nature of the answer so that every student learns that generosity in a request is a key to the treasures of giving, and abuse in a request is a lock to the treasures of giving.

The two models around which the research revolves are Nafi' bin Al-Azraq's questions to our master Abdullah bin Abbas.

And a question from our master Urwa bin Al-Zubair to Mrs. Aisha, may God be pleased with her.

Keywords: Between two questions, Mrs. Aisha Abdullah bin Abbas Urwa bin Al-Zubair.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الله تعالى سخر لهذا الدين من أنفقوا الغالي والرخيص لإيصاله إلى الناس وأعطاهم من العلم ما يستطيعون به استنباط المراد من نصوصه حتى يقدموها سهلةً ميسورةً، ولا يطلبون من الناس إلا حسن الخلق معهم، والإجمال في الطلب، وقلة المماراة، لأن سوء خلق وكثرة المماراة باعثة على الضجر، ومغلقة لفتوحات المعاني، ولقد وقفتُ أمام نموذجين من السائلين عن معاني الآيات القرآنية، واخترت من كل نموذج سؤالًا واحدًا ؛ لأبيّن كيف يؤثر السؤال على الإجابة؟ وكيف يفتح السائل بسؤاله المهذب باب المعاني، حتى يمتلئ وعاؤه من علم المسئول؟

وفي المقابل: كيف يُغلق سؤالٌ آخر مفاتيح المعاني، فيرجع بخُفَّي حنين[١]؟.

كيف ينزل سؤال السائل على قلب العالم بردًا وسلامًا؟ وكيف يلهب سؤال آخر قلب العالم فيضجر، ويحتد، ويُعرض ؟.

١- مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري ٢٩٦:١دار المعرفة – بيروت ت: محمد محيي الدين عبد الحميد (أصلُ هذا المثل : أن حُنَيناً كان إسكافا من أهل الحيرة، ساومه أعرابي خفين حتى أحرجه ولم يشترهما. فغضب الأسكاف ورجع بخفيه إلى طريق الأعرابي، فوضع أحد الخفين على الطريق، ثم مر ساعة فوضع الآخر، وكمن فجاء الأعرابي وقف على الخف الأول في الطريق فقال: ما أشبه هذا الخف بخفي حنين! لو كان معه الآخر لأخذتهما. ثم سار حتى وجد الآخر، فندم على أنَّ فرط في الأول، فأناخ راحلته وأخذ هذا وعقل راحلته ورجع إلى الأول ليأخذه، فخرج حنين إلى الراحلة فأخذها وما معها ومضى لوجهه. فجاء الأعرابي بالخفين إلى أهله، فإذا قيل له: بم جئت؟ قال: بخفي حنين، فضربوه مثلا لمن رجع بالخيبة وآب بالخسران).

إن هذه الورقات التي تقرأها يُقصد من ورائها بيانُ أثرِ السؤال وخلفيةِ السائل على الإجابة، وأثر علاقة السائل بالمسئول على الإجابة، ليتعلم كل طالب أن الإجمال في الطلب مفتاحٌ لخزائن العطاء، والإساءة في الطلب مغلاق لخزائن العطاء.

والنموذجان اللذان يدور حولهما البحث هما: نافع بن الأزرق، وعروة بن الزبير. والعالمان المسئولان معنا هنا هما: سيدنا عبد الله بن عباس، والسيدة عائشة رضي الله عنهم.

والسؤالان اللذان يدور حولهما البحث هما:

- سؤال نافع بن الأزرق لسيدنا عبد الله بن عباس عن معاني بعض الآيات القرآنية، وتعقيبه على كل سؤال بقوله: وهل تعرف العرب هذا ؟
- وسؤال عروة بن الزبير للسيدة عائشة عن قول الله تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ**﴾ النساء ٣

ذاك موضوع البحث، ولقد حاولت أن أحلل الكلام تحليلا بلاغيا ، أحللُ كلامَ نافع وإجابة سيدنا ابن عباس، وكذلك كلام سيدنا عروة وإجابة السيدة عائشة .

فالمنهج منهج تحليلي.

أما خطة البحث، فتشمل مقدمة، وثلاثة مباحث وخاتمة:

في المقدمة أوجز موضوع البحث، ومنهجه، وخطته.

وفي المبحث الأول: ألقي الضوء على شخصيات البحث.

وفي المبحث الثاني: أحلل سؤال نافع وإجابة سيدنا أبن عباس.

وفي المبحث الثالث: أحلل سؤال عروة وإجابة السيدة عائشة.

وفي الخاتمة أستخلص أثر السؤال على الجواب في كل من السؤالين، ليتحقق الغاية من البحث وهو الفارق بين السؤالين، والله الهادي إلى سواء الصراط.

سعيد جمعة

المبحث الأول

ضوء على شخصيات البحث

كان المفروضُ البدءَ بالسيدة عائشة رضي الله عنها، لمنزلتها، ولأنها، ولأنها، ولأنها، ثم يُتبع ذلك بسيدنا عبد الله بن عباس، ثم سيدنا عروة بن الزبير، ثم نافع بن الأزرق ، لكنني ارتأيت أن أعكس ذلك لعدة أسباب:

الأول: شهرة الثلاثة الأوائل، ويقيني بأن النفس تهوى البدء بالغريب، والأقل معرفة لديها، لأن حاجتها إلي معرفته أشد، ورغبتها في التعرف عليه أقوى، لذلك سأبدأ بنافع بن الأزرق.

الثاني: أن المحرك والمسبب لعمل هذا البحث كان نافعَ بن الأزرق، وسؤالاته، ومن حقه هنا أن نبدأ به، ردًا للجميل.

الثالث: أن محور البحث يدور على سؤال نافع وسؤال عروة، لذا كان البدء بهما موافقا لطبيعة البحث، ومتطلباته.

أولا: نافع بن الأزرق[١]

هو أبو راشد، نافع بن الأزرق، الحنظلي، الحنفي، الحروري، رأس الأزارقة، وإليه تُنسب، كان أمير قومه وفقيههم وكان هو وأصحابه من أنصار الثورة على سيدنا عثمان بن عفان، ومع أنه كان من المناصرين لسيدنا على بن أبي طالب إلا أنه نادى بالخروج عليه بسبب قضية التحكيم التي حدثت بين سيدنا عليٍّ وسيدنا معاوية، وقد ذَكَرَت كتبُ السِير والتراجم أنه اجتمع هو وأصحابه في (حروراء) وهي قرية من ضواحي الكوفة، ونادَوا بالخروج على سيدنا عليّ بن أبي طالب،

١- الأعلام لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢م.

وعُرفوا لذلك بالخوارج وكان نافع بن الأزرق يذهب إلى سوق الأهواز، ويعترض الناس بما يُحيِّر العقل، ويقول لهم أخبث الأقاويل وأبعده من الإسلام والسنة)[١].

ويروى عن أبي الجلد أنه نظر إلى نافع بن الأزرق الحنفي، وإلى نظره وتوغله وتعمقه، فقال: إني لأجد لجهنم سبعة أبواب، وإن أشدها حراً للخوارج، فاحذر أن تكون منهم.

قال: وكان نافع بن الأزرق ينتجع عبد الله بن العباس فيسأله... ثم غلبت عليه الشقوة)[٢].

ومن نماذج هذه الأسئلة: قوله لسيدنا عبد الله بن عباس: (أرأيت نبي الله سليمان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع ما خوَّله الله وأعطاه، كيف عُني بالهدهد على قلته وضؤولته؟

فقال له ابن عباس: إنه احتاج إلى الماء، والهدهد قناء[٣]، والأرض له كالزجاجة، يرى باطنها من ظاهرها، فسأل عنه لذلك.

قال ابن الأزرق: قف يا وقّاف، كيف يُبصر ما تحت الأرض ، والفخ يغطى له بمقدار إصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه؟ !

فقال ابن عباس: ويحك يا ابن الأزرق! أما علمت أنه إذا جاء القدر عُشي البصر.

ويروى من غير وجه أن ابن الأزرق أتى ابنَ عباس يوماً ، فجعل يسأله، حتى أمله ، فجعل ابن عباس يُظهر الضجر.

وذكر أن (أبا الوازع الراسبي .... أتى نافع بن الأزرق وهو في جماعة من أصحابه، يصف لهم جور السلطان – وكان ذا لسان عضب، واحتجاج وصبر على المنازعة– فأتاه أبو الوازع، فقال يا نافع، لقد أعطيت لساناً صارماً وقلباً كليلاً،

١– طبقات الحنابلة لأبي الحسين ابن أبي يعلى ، محمد بن محمد (المتوفى : ٥٢٦هـ) ت/محمد حامد الفقي نشر : دار المعرفة – بيروت ١/ ٢٣.

٢– الكامل في اللغة والأدب للمبرد ٣/ ١٦٣.

٣– القناء: هو العالم بمواضع الماء في الأرض.

فلوددت أن صرامة لسانك كانت لقلبك، وكلال قلبك كان للسانك ، أتحض على الحق وتقعد عنه، وتقبح الباطل وتقيم عليه!)[١].

وذكر المبرد أن نجدة بن عامر[٢] كتب إلى نافع ما يأتي:

(بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فإن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم، وللضعيف كالأخ البر، لا تأخذك في الله لومة لائم، ولا ترى معونة ظالم ، كذلك كنت أنت وأصحابك. أما تذكر قولك: "لولا أني أعلم أن للإمام العادل مثل أجر جميع رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين"؟ فلما شريت نفسك في طاعة ربك ابتغاء رضوانه، وأصبت من الحق فصّه، وركبت مُرّه، تجرد لك الشيطان، ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك، فاستمالك واستهواك، واستغواك وأغواك، فغويت فأكفرت الذين عذرهم الله في كتابه من قعد المسلمين وضعفتهم، فقال جل ثناؤه، وقوله الحق ووعده الصدق: { **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ** } التوبة ٩١ ثم سماهم

١- السابق ٣/ ١٧٠

٢- نجدة بن عامر الحروري ت / ٦٩ هـ الحنفي، من بني حنيفة، من بكر بن وائل: رأس الفرقة " النجدية " نسبة إليه، من الحرورية، ويعرف أصحابها بالنجدات. من كبار أصحاب الثورات في صدر الإسلام.

انفرد عن سائر " الخوارج " بآراء. قال ابن حجر العسقلاني: قدم مكة، وله مقالات معروفة وأتباع انقرضوا. كان أول أمره مع نافع ابن الأزرق، وفارقه لإحداثه في مذهبه. ثم " خرج " مستقلا باليمامة (سنة ٦٦ هـ أيام عبد الله بن الزبير، في جماعة كبيرة. فأتى البحرين واستقرّ بها وتسمى بأمير المؤمنين. ووجه إليه مصعب ابن الزبير خيلا بعد خيل، وجيشا بعد جيش، فهزمهم.

وأقام نحو خمس سنين وعماله بالبحرين واليمامة وعمان وهجر وبعض أرض العرض.

ونقم عليه أصحابه أمورا – قيل: منها أنه وجد ابنة لعمرو بن عثمان بن عفان قد وقعت في السبي، فاشتراها من ماله بمئة ألف درهم، وبعث بها إلى عبد الملك بن مروان – فخلعوه، ثم قتلوه.

أحسن الأسماء، فقال: { مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ } . ثم استحللت قتل الأطفال، وقد نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتلهم، وقال الله عز ذكره: {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} الأنعام ١٦٤، وقال في القعود خيراً، وفضل الله من جاهد عليهم. ولا يدفع منزلة أكثر الناس عملاً منزلة من هو دونه ، أو ما سمعت قوله عز وجل: { لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} النساء ٩٥ ، فجعلهم الله من المؤمنين، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم ، ورأيت ألا تؤدي الأمانة إلى من خالفك ، والله يأمر أن تؤدَّى الأمانات إلى أهلها، فاتق الله وانظر لنفسك، واتق يوماً: "{ لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً }" لقمان ٢٣ ، فإن الله عز ذكره بالمرصاد، وحكمه العدل، وقوله الفصل ..... والسلام.

فكتب إليه نافع:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد:

فقد أتاني كتابك تعظني فيه وتذكرني، وتنصح لي وتزجرني، وتصف ما كنت عليه من الحق، وما كنت أوثره من الصواب، وأنا أسأل الله جل وعز أن يجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وعبت عليَّ ما دنتُ به من إكفار القعد ، وقتل الأطفال، واستحلال الأمانة، فسأفسر لك لم ذلك إن شاء الله .

أما هؤلاء القعد: فليسوا كمن ذكرت ممن كان بعهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين، لا يجدون إلى الهرب سبيلاً، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقة، وهؤلاء قد فقهوا في الدين، وقرأوا القرآن، والطريق لهم نهج واضح، وقد عرفت ما قال الله عز جل فيمن كان مثلهم، إذ قالوا: {كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ} النساء ٩٧ فقيل لهم: { أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا } وقال: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} التوبة ٨١، وقال: {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ} التوبة ٩٠، فخبر بتعذيرهم، وأنهم

كذبوا الله ورسوله، وقال: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَـذَابٌ أَلِيـمٌ}. فانظر إلى أسمائهم وسماتهم.

وأما أمر الأطفال فإن نبيَّ الله نوحاً عليه السلام كان أعلم بالله – يا نجدة – مني ومنك، فقال: { وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَـاجِراً كَفَّـاراً } نوح ٢٦، فسماهم بالكفر وهم أطفال، وقبل أن يولدوا ، فكيف جاز ذلك في قوم نوح ولا يجوز ذلك في قومنا! والله يقول: { أَكُفَّارُكُمْ خَـيْرٌ مِـنْ أُولَـئِكُمْ أَمْ لَكُـمْ بَـرَاءَةٌ فِي الزُّبُـرِ } القمر ٤٣، وهؤلاء كمشركي العرب، لا نقبل منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام.

وأما استغلال أمانات من خالفنا فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم، كما أحل لنا دماءهم، فدماؤهم حلال طلق، وأموالهم فيء للمسلمين. فاتق الله وراجع نفسك، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة، ولن يسعك خذلاننا والقعود عنا، وترك ما نهجناه لك من طريقتنا ومقالتنا، والسلام على من أقر بالحق وعمل به)[١].

تلك كانت إجابة نافع على صاحبه " نجدة بن عامر"، ولعلك لاحظت طريقته في الإجابة، ومنهجه في الإقناع، وقدرته على الاستدلال، وطريقته في تحوير المراد حتى إن الكثير قد ينخدع بكلامه.

تلك نبذة عن نافع بن الأزرق، وتلك شخصيته، وراجع معالم هذه الشخصية، واستحضر هذه العبارات لتعلم كيف رُسمت بأقلام السابقين؟ فلقد كان نافع بن الأزرق:

- يذهب إلى سوق الأهواز، ويعترض الناس بما يُحيّر العقل ، ويقول لهم أخبث الأقاويل وأبعده من الإسلام والسنة.
- وكان ينتجع عبد الله بن العباس فيسأله... ثم غلبت عليه الشقوة .
- وكان يسأل ابن عباس حتى أمله، فجعل ابن عباس يُظهر الضجر.

١- الكامل ٣/ ٢٠٨.

- وكان ذا لسان عضب، واحتجاج وصبر على المنازعة.

ثم إنه جاء يسأل سيدنا عبد الله بن عباس وقت انفراط عقد هذه الأمة، وقد أمست الأمصار موزعة بين الفرقاء، فهذا عبد الملك بن مروان وقد غلب على الشام، وعبد الله بن الزبير غلب على مكة والمدينة، ونجدة بن عامر غلب على اليمامة، وظل القتال قائما بين الزبيريين بقيادة مصعب بن الزبير والمختار بن أبي عبيد ..... إلخ.

فالأمة في حالة تشتت ، ونافع جاء يسأل سيدنا عبد الله بن عباس عن معاني الآيات في هذا الوقت ، وظل يسأل ، ويسأل وأكثر من الأسئلة، ولم تُدوّن هذه الأسئلة، إنما فقط جمع منها السيوطي أكثر من مائة وعشرين مسألة[١].

والذي أريدك أن تستحضره هنا هو هذه العقلية ، وخلفيتها الفكرية، ومكوناتها الثقافية، وجرأتها على العلماء، واستعمال الألفاظ الخشنة في الاستفهام، تلك العقلية التي ثارت على ذي النورين مع الثائرين، وتزعمت قومها، وعرضت من الشبهات على الناس ما يحير العقل، وترى أن دماء المسلمين، وأموالهم، بل وأماناتهم حلال ماداموا يخالفونهم في التوجه والرأي.

ولا تنس في أثناء ذلك كله تلك الظروف التاريخية، التي تجسد حالة الافتراق بين أبناء الأمة الواحدة، وما يستتبعه من إعجاب المرء برأيه، ونسيانه لحقوق أهل الفضل.

١- نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) جامعة أم القرى – كلية الدعوة وأصول الدين المملكة العربية السعودية (٣ رسائل دكتوراة) سنة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٥ م

ثانيا: عروة بن الزبير.

هو عروة بن الزبير بن العوام القرشي، الأسدي، الفقيه، الإمام المدني، روى عن أبيه، وعن علي بن أبي طالب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأسامة بن زيد، وزيد بن ثابت، وحكيم ابن حزام، وعائشة ، وأبي هريرة، وابن عباس، وطائفة أخرى، وهو أحد الفقهاء السبعة، وهو شقيق أخيه "عبد الله بن الزبير" بخلاف مصعب، وأمهما أسماء بنت أبي بكر الصديق، وهو أول من صنف المغازي، قال حميد بن عبد الرحمن : لقد رأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنهم ليسألون عروة !

وقال الزهري: رأيت عروة بحراً لا تكدره الدلاء ، وكان يقرأ في كل يوم ربع القرآن نظراً في المصحف، ويقوم به في الليل، وكان إذا كان أيام الرطب تلم حائطه، وأذن للناس يدخلون، ويأكلون، ويحملون، وهو الذي احتفر البئر التي في المدينة منسوبة إليه؛ وليس بالمدينة بئر أعذب منها.

ولد سنة اثنتين وعشرين وقيل ست وعشرين، وتوفي سنة أربع وتسعين للهجرة، وروى له الجماعة، وجمع المسجد الحرام بين عبد الملك بن مروان وبين عبد الله بن الزبير، وأخيه مصعب ، وعروة أيام تآلفهم؛ فقال بعضهم: هلم فلنتمنّه!

فقال عبد الله: مُنيتي أن أملك الحرمين، وأنال الخلافة!

وقال مصعب: منيتي أن أملك العراقين، وأجمع بين عقيلتي قريش: سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة!

وقال عبد الملك بن مروان : منيتي أن أملك الأرض كلها، وأخلف معاوية!

فقال عروة: لست في شيء مما أنتم فيه! منيتي الزهد في الدنيا والفوز في الآخرة، وأكون ممن يروى عنه هذا العلم!

فبلغ كل مناه ! فكان عبد الملك بن مروان بعد ذلك يقول: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة !

وقدم عروة على الوليد بن عبد الملك فلما كان في وادي القرى وقعت في رجله قرحة، فأشاروا عليه في مجلس الوليد بأن يقطعها وإلا أفسدت جميع جسدك! فدعي الجزار ليقطعها، وقالوا: نسقيك الخمر حتى لا تجد ألماً! فقال: لا أستعين بحرام الله على ما أرجوه من عافيته ! فقالوا : نسقيك مرقداً! فقال: ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه!

ودخل عليه قوم أنكرهم فقال: ما هؤلاء ؟ قالوا: يمسكونك فإن الألم ربما عزب معه الصبر! فقال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي! فقطعت ركبته بالسكين في مجلس الوليد والوليد مشغول عنه بمن يحدثه ولم يدر الوليد بقطعها حتى شم رائحة الكي بالنار!

هكذا ذكر القتيبي، وقال غيره؛ قال: دعوني أصلي، فإنه كان إذا صلى اشتغل عن نفسه بالصلاة! فقطعت وهو يصلي! وقيل إنها قطعت بالمنشار، وأغلي له الزيت فحسم به فغشي عليه فلما أفاق وهو يمسح العرق قال: "لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا" وما ترك ورده تلك الليلة، ودخل ابنه محمد؛ وكان يدعى "زين المواكب" لحسنه؛ إسطبل الوليد فرفسته دابة فقتلته وعروة لا يعلم فأتاه صديق له يزهده في الدنيا ويذكره الموت ويرغبه في الآخرة فظن عروة إنما يعزيه عما ابتلي به في جسده فذكر له موت محمد ولده ؛ فاسترجع وأنشأ يقول:

وكنت إذا الأيام أحدثن نكبة ∴ أقول شوى ما لم يصبن صميمي

وتمثل بأبيات معن بن أوس:

لعمري ما أهديت كفي لريبة ∴ ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

ولا قادني سمعي ولا بصري لها ∴ ولا دلني رأيي عليها ، ولا عقلي

وأعلم أني لم تصبني مصيبة ∴ من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: وعزتك لئن كنت ابتليت لقد عافيت، ولئن كنت قد أخذت لقد أبقيت، أخذت واحداً وأبقيت لي ستة، وأخذت طرفاً وأبقيت ثلاثاً! ....

والذي أريده هنا أن تتذكر عن سيدنا عروة أنه:

أحد الفقهاء السبعة في المدينة المنورة، وأن الصحابة أنفسهم كانوا يسألونه في العلم، وأنه الزاهد العابد الصابر على الابتلاء. فهذه المكونات حين تجتمع في شخص، ثم تراه يَسأل، فإنك ترى سؤاله محاطا بالتوقير والإجلال للعالم.

ثالثا: عبد الله بن عباس .

لاشك أن عبد الله بن عباس علم من أعلام الإسلام، وواحد من أشهر رجالاته، ولا يمنع هذا من التذكير بما هو مذكور بإيجاز شديد تكميلا لشكل البحث، وهيكله.

فهو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أبو العباس الهاشمي المكي. سمع من النبي صلى الله عليه وسلم وروى عن جمع من الصحابة، وروى عنه جمع من الصحابة والتابعين. وأمه أم الفضل لبابة، وخالته ميمونة بنت الحارث بن حزن، مات بالطائف سنة ثمان ويقال سنة تسع وستين ويقال سنة سبعين.

قالَ عن نفسه: وُلدت قبل الهجرة بثلاث سنين، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا ابن ثلاث عشرة، ومررت بمنى يعني في حجة الوداع والنبي يصلي بالناس، وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام .وقال ابن أبي شيبة مات سنة ثمان وستين، وقال عمرو بن علي مات وهو ابن ثنتين وسبعين سنة. قال يحيى بن بكير: مات ابن عباس بالطائف سنة ثمان وستين وسنه إحدى أو اثنان وسبعين سنة)[١].

١- رجال صحيح البخاري المسمى الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد لأحمد بن محمد بن الحسين بن الحسن، أبو نصر البخاري الكلاباذي (المتوفى : ٣٩٨هـ) ت عبد الله الليثي- دار المعرفة – بيروت الطبعة : الأولى ، ١٤٠٧ الجزء الأول صفحة ٣٨٤.

رابعا: السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق

يكفي أن يقال هنا: إنها زوج النبي –صلى الله عليه وسلم– إنها عائشة بنت أبي بكر، فأبوها أبو بكر الصديق، وأمها أم رومان بنت عامر .. روى عنها جمع من الصحابة، كما روى عنها عروة ابن الزبير بن العوام ...

ماتت عائشة رضي الله عنها سنة سبع وخمسين، وقيل سنة ثمان وخمسين ودفنت في ليلتها بعد الوتر، وصلى عليها أبو هريرة خليفة مروان بن الحكم على المدينة.

المبحث الثاني

سؤالات نافع وإجابة سيدنا ابن عباس

ذكر السيوطي في الإتقان: (عن ابن عباس أنه كان يُسأل عن القرآن ، فيُنشد فيه الشعر... يعني كان يستشهد به على التفسير، ثم قال : قد روينا عن ابن عباس كثيرا من ذلك ، وأوعب ما رويناه عنه مسائل نافع بن الأزرق .... إلخ

(فعن حميد الأعرج وعبد الله بن أبي بكر بن محمد عن أبيه قال: بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر:

قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به: فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله، فتفسرها لنا.

وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما ، فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى: {عن اليمين وعن الشمال عزين}، قال العِزون: الحِلَق الرقاق، **قال: وهل تعرف العرب ذلك ؟**

قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاؤا يهرعون إليه حتى ∴ يكونوا حول منبره عزينا

قال: أخبرني عن قوله: { وابتغوا إليه الوسيلة } قال: الوسيلة: الحاجة، قال: **وهل تعرف العرب ذلك ؟**

قال: نعم أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة ∴ إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

قال: أخبرني عن قوله: { شرعة ومنهاجا }

قال: الشرعة: الدين، والمنهاج : الطريق. **قال: وهل تعرف العرب ذلك؟**

قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول:

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى ∴ وبيّن للإسلام دين ومنهاجا[١]

وظل نافع يسأل، ويسأل، حتى زاد على المائة والعشرين سؤالاً، ويطلب على كل إجابة دليلا من كلام العرب، ويقول: وهل تعرف العرب ذلك؟ حتى أثقل على ابن عباس، وأمَلَّه، وجعل ابن عباس يظهر الضجر.

والبحث هنا لا يتوقف على الأسئلة، ولكن على كيفيتها، وكميتها، وما يحيط بها، وأول شيء يقف عليه هنا هو: اتهام نافع لسيدنا عبد الله بن عباس بأنه مجترئ على تفسير القرآن الكريم، حيث قال: (قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به)، وهذا عجيب، فإذا كان ابن عباس لا يعرف التفسير فمن يعرفه؟ !! وهو الذي (كَانَ عمر بن الخطاب يَدْعُوه ، وَيُقَرِّبُهُ ، وَيَقُولُ له : إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – دَعَاكَ يَوْمًا فَمَسَحَ رَأْسَكَ ، وَقَالَ اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيل)[٢]

وهو الذي (أثنى عليه سيدنا علي بن أبي طالب، وكان يحث على الأخذ عنه، وقال عنه: « ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق .. وكان عبد الله بن مسعود يقول: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس)[٣].

وعبارة (نافع) ترسم هذه النفسية المتهورة التي ترمي غيرها بالظِّنَّة ، وتتعجل في أمورها دون تثبت ، وراجع كلامه مرة أخرى وهو يقول:

قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٦٨

٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١/ ١٧٠

٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) ت ١عبد السلام عبد الشافي محمد ١ دار الكتب العلمية – بيروت ط الأولى – ١٤٢٢ هـ ٤١١١

فقوله لنجدة بن عامر: (قم بنا) وكأن في الأمر خطرًا ينبغي اللحاق به قبل أن يستفحل، وقوله: (إلى هذا) يشير إلي ابن عباس وهو يعلم من هو، وفي ذلك من التحقير ما يُتعجب منه، فمَنْ مِنَ الناس لا يعرف عبد الله بن عباس؟!

ثم إن قوله: (هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن) عجيبةٌ جدًا، من جميع الوجوه ، لأنه اتهام يستبطن أن نافع أعلم من ابن عباس، وأن الذي ينبغي أن يسأله الناس عن معاني القرآن هو نافع ، وكأن ابن عباس استلب حقًا ليس له ، ثم إن جملة (بما لا علم له به) تصرح بدخيلة نفس نافع بن الأزرق، وأنه الأحق بأن يُستفتى، وأن يُفسر، وأن يلتف حوله الناس، وهذا لون من الكِبر[١].

وبعد هذا الاجتراء (قاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله، فتفسرها لنا، **وتأتينا بمصادقة من كلام العرب)!!.**

١- جاء في كتب السنة قصة تشابه هذه الحادثة ، حيث أخرج الإمام أحمد في مسندة خديثا رقم ٦٥٨٣ عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال الا ان صاحبكم هذا قد وضع كل فارس بن فارس قال يريد أن يضع كل فارس بن فارس ويرفع كل راع بن راع قال فأخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم بمجامع جبته وقال ألا أرى عليك لباس من لا يعقل ثم قال ان نبي الله نوحا صلى الله عليه و سلم لما حضرته الوفاة قال لابنه اني قاص عليك الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين آمرك بلا إله إلا الله فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله الا الله في كفة رجحت بهن لا إله الا الله ولو ان السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله الا الله وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق وأنهاك عن الشرك والكبر قال قلت أو قيل يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر قال أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان قال لا قال هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها قال لا قال الكبر هو ان يكون لأحدنا دابة يركبها قال لا قال أفهو ان يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه قال لا قيل يا رسول الله فما الكبر قال سفه الحق وغمص الناس وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح والحديث يبين كبر هذا الذي اتهم رسول الله بأنه يريد أن يضع كل فارس بن فارس ، ويرفع كل راع بن راع ، وذكر النبي صحابته بأن ذلك من الكبر الذي حذر منه نوح أولاده.

والتعبير هنا بصيغة الجمع (إنا نريد أن نسألك) يوضح حالة التحزب التي بين نافع ونجدة بن عامر، والرغبة في تخطئة ابن عباس، ولذلك طلبوا قبل الإجابة دليلا على ما سيقال، فقالوا: وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، وهذا الطلب اتهام مسبق بأن ما سيقال لا دليل عليه، أو أنهم سمعوه من قبل ولم يجدوا عليه دليلا، وكأنهم لا يطلبون الإجابة، بل يطلبون الدليل، وتُعدُّ هذه الواقعة أول المطاعن التي واجهتها الصحابة في القرآن الكريم ، فالسؤال عن معاني الألفاظ يغمز كونها عربية، وطلب الدليل على أنها عربية من كلام العرب يصل بالسؤال إلى درجة الإنكار بأن هذه الألفاظ عربية.

وهذا يفتح الباب في التشكيك بعربية ألفاظ القرآن الكريم ، ويتبع ذلك التشكيك بالآيات التي تصرح بأنه قرآن عربي ، كما في قوله تعالى:

- **(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** يوسف ٢
- **(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا)** طه ١١٣
- **(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)** النحل ١٠٣
- **(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)** الشعراء ١٩٢- ١٩٥

وغير ذلك كثير، ولذلك عمد سيدنا عبد الله بن عباس إلى شعر العرب ليكون سندا لكل معنى يذكره، وليكون رادعا لكل سائل يشكك في عربية القرآن الكريم، أو يقترب من هذا الحِمى، (وقد بلغت الأبيات التى استشهد بها ابن عباس في شرح ألفاظ القرآن الكريم التي سئل عنها مائة وواحداً وتسعين بيتا)[1]، (وهذا يدل على

١- المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام لعلي بن نايف الشحود ٢٦٠/٧.

سعة علمه بلغة العرب، وقوّة ذاكرته مما جعله إمامًا للتّفسير في عهد الصحابة، ومرجعًا للمفسّرين في الأعصر التالية لعصره، وهو إمام مدرسة التفسير في مكّة، وأوّل من ابتدع الطريقة اللّغويّة في تفسير القرآن)[١].

لقد كرر نافع بن الأزرق جملة: (وهل تعرف العرب ذلك؟) أكثر من سبعين مرة، وكان ابن عباس يجيب بقوله: (نعم، أما سمعت قول الشاعر كذا ....)

وقد كرر هذا أكثر من مائتي مرة، مما يبرهن على ضجره وسأمه من هذا النمط من الأسئلة ، فابن عباس لم يزد على ذكر المعنى، والاستشهاد بالشعر، ولم يكن يسترسل أو يضيف، أو يتبسط في الإجابة أو يشرح، أو أي شيء ينمُّ عن ارتياح وتودد للسائل، بل كانت الإجابات كلها على قدر السؤال.

والذي يدرس النفسية العربية يعرف أن ذلك دليل السأم، وبخاصة حين تستشعر أن نافع بن الأزرق كان يرغب في الانتقاص من سيدنا عبد الله بن عباس، ويُظهرُ أنه عاجز عن الإجابة، أو تستشعر أن السؤال يغمز رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ويطلب دليلا على أنه بلسان عربي مبين.

وتستوقفني هنا بلاغة ابن عباس في رد هذه الروح المستفزّة، حيث قابل كل ذلك بصبر وأناة ، وفهمٍ وفراسةٍ، حتى أنه صحح بيتا من الشعر ردده ابن الأزرق خطئًا، ثم أعاد القصيدة وهي ثمانون بيتا ليعلَّمه أن من حفظ حجةٌ على من لم يحفظ، وأن للعلم أهلًا يأرز العلم إليهم، كما يأرز الإيمان إلى المدينة المنورة.

وحقيقة لقد استوقفتني هذه الأسئلة، ونظرت إليها نظرة أخرى ، ولا أريد أن اكتفي بهذه الكلمات ، لكنني أبحث عن الخلفية التي أزّت نافع بن الأزرق أزًّا، وجعلته يجترأ هذه الجرأة على حبر الأمة، بل يجترأ على الخوض في أساسٍ من أسس

١- الجواهر الحسان في تفسير القرآن لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ) ت الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

الدين، وهو أنه نزل بلسان عربي مبين، أقول إن هذه الأسئلة جعلتني أفتش عن الأحوال التي دفعت ابن الأزرق لأن ينحوَ هذا النحو، وأن يشتط هذا الشطط، وليس هناك سببٌ يقنعك إلا التمذهب السياسي، فابن الأزرق من الخوارج ، وهؤلاء لهم معتقد سياسي في الخلافة، والإمارة جعلهم ينظرون إلى غيرهم من خلاله ، وأنا هنا لا أناقش صحة أو فساد المذهب السياسي، لكنى أبين أن رؤية الدِّين من خلال المذاهب السياسة رؤية خاطئة، ولا تنتج إلا انحرافًا في الفهم، فصاحب المذهب السياسي الخاص يجد نفسه – رغما عنه – يميل إلى هذا المذهب، ويحاول أن يرفعه فوق غيره، ويُدخل غيره فيه، وينافح عنه، وتلك مزلة تجرُّ صاحبها إلى الفهم المعوج ، وتدفعه إلى الاعتراض على أصحاب الفهم الصحيح . وانظر مثلا حين أراد نافع بن الأزرق وأصحابه أن يَعلموا رأيَ سيدنا عبد الله بن الزبير في سيدنا عثمان بن عفان، حيث حضروا إليه، وقام خطيبهم أولا (عبيدة بن هلال اليشكري) ليخطب قبل أن يتكلم ابنُ الزبير، وكأنهم يصادرون عليه رأيه، قام (اليشكري) هذا – كما ذكر خير الدين الزركلي في الأعلام– فحمد الله وذكر بعثة نبيه صلّى الله عليه وسلم وأثنى على سيرة أبي بكر وعمر، ثم قال :(واستخلف الناسُ عثمانَ، فآثر القربى ، ورفع الدِّرة ، ووضع السوط ، ومزق الكتاب، وضرب مُنكر الجوْر، وآوى طريد رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وضرب السابقين بالفضل وحرمهم، وأخذ الفئ فقسمه في فُسّاق قريش ومُجّان العرب، فسارت إليه طائفة فقتلوه، فنحن لهم أولياء ومن ابن عفان وأوليائه برآء (كذا)، فما تقول أنت يا ابن الزبير؟

فما كان من سيدنا عبد الله ابن الزبير إلا أن قال: (قد فهمت الّذي ذكرت به النبي صلى الله عليه وسلم، وهو فوق ما ذكرت وفوق ما وصفت، وفهمت ما ذكرت به أبا بكر وعمر، وقد وُفِّقت وأصبت، وفهمت الّذي ذكرت به عثمان، وإني لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره مني ، كنت معه حيث نُقم عليه، واستعتبوه فلم يدع شيئا إلا أعتبهم، ثم رجعوا إليه بكتابٍ له، يزعمون أنه

كتبه يأمر فيه بقتلهم، فقال لهم: ما كتبته، فإن شئتم فهاتوا بينتكم، فإن لم تكن حلفتُ لكم ، فوالله ما جاؤوه ببينة ولا استحلفوه ، ووثبوا عليه فقتلوه ، وقد سمعتُ ما عبته به، فليس كذلك، بل هو لكم خير أهل، وأنا أشهدكم ومن حضرني أني وليّ لابن عفان وعدو لأعدائه. أهـ

ولم يُرضِ هذا نافعًا وأصحابه، فانفضوا من حوله ، وعاد نافع ببعضهم إلى البصرة، فتذاكروا فضيلة الجهاد ، وخرج بثلاثمائة وافقوه على الخروج.. [1]

ولما انتشرت الأزارقة أظهرت في أتباعها أن عليًا رضي الله عنه هو الذي أنزل الله فيه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ**﴾ (البقرة: ٢٠٤) وأن ابن ملجم هو الذي أنزل الله فيه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ (البقرة:٢٠٧)، وقال عمران بن حطان وهو مفتي الخوارج وزاهدها وشاعرها الأكبر في ضربته عليًا رضي الله عنه هذين البيتين:

يا ضربة من منيب ما أراد بها ∴ إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوما فأحسبه ∴ أوفى البرية عند الله ميزانا

وعلى هذا العقيدة مضى أسلاف الازارقة[٢].

ويقول الزركلي أيضا: (وكان (نافع) جبارا فتاكا، قاتله المهلب بن أبي صفرة، وقاتل الأزارقة تسع عشرة سنة ، ولقي الأهوال في حربه إلى أن فرغ من أمرهم في أيام الحجاج[٣].

١- الأعلام لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م ٢/ ٣٥٢.

٢- السابق ٢/ ٣٥٤

٣- السابق ٢/ ٣٥٥.

وذكر المبرد في الكامل أن نافع بن الأزرق كان يأتي ابنَ عباس، ويسائله حتى أمَلَّه، وجعل ابن عباس يظهر الضجر. وكان بعد كل مسأله يقول له: هل كانت العرب تعرف ذلك من قبل أن ينزل القرآن؟!!!

وهذا ضرب من المعاندة ، والرغبة في التخطيء، ووضع العراقيل أمام الخصم، ومع كل ذلك كان ابن عباس يجيب ، ويستشهد من كلام العرب بما يؤيد كلامه، ويقول له: أما سمعت قول الشاعر كذا وكذا.

كما أن أكثر الأسئلة لم تكن من أجل التعلم، بل إنك تلمح فيها غير ذلك.

وذكر المبرد أيضا أن "عمر بن أبي ربيعة" طلع على ابن عباس وكان "عمر" يؤمئذ غلامًا، فسلم وجلس، فقال له ابن عباس: ألا تنشدنا شيئاً من شعرك، فأنشده:

أَمِن آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرُ ∴ غداةَ غدٍ أم رائح فمُهَجَّرُ

حتى أتمها "عمر" وهي ثمانون بيتاً.

فقال ابن الأزرق: لله أنت يا ابن عباس، أنضرب إليك نسألك في الدين فتُعرض، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه؟

فقال: تا لله ما سمعت سفهاً.

فقال ابن الأزرق: أما أنشدك:

رأتْ رجلا أما إذا الشمسُ عارضتْ ∴ فيضحى، وأما بالعشيَّ فيخسر

فقال: ما هكذا قال ، وإنما قال:

فيضحى ، وأما بالعشى فيخصَرَ

وهذا موقف آخر من ابن الأزرق يشي بالعجلة في الفهم ، وسوء أدب مع العلماء ، وتشدد في الدين.

وذكر المبرد أيضا أن ناسا كانوا يسألون ابن عباس عن التفسير ، ويقولون:

يا ابن عباس ما تقول في كذا وكذا؟

فيقول: هو كذا وكذا.

فقال له نافع بن الأزرق: ما أجرأك يا ابن عباس على ما تخبر به منذ اليوم!

فقال له ابن عباس: ثكلتك أمك يا نافع، وعَدمَتْك، ألا أخبرك من هو أجرأ مني؟

قال: من هو يا ابن عباس؟

قال: رجل تكلم بما ليس له به علم، ورجل كتم علماً عنده)[١].

ولعل ابن عباس أراد بقوله : رجل تكلم بما ليس به علم يقصد نافعًا نفسه، لكنه عرّض به دون تصريح.

ولعل هذه الخلفية التي ذكرتها تشي بأن نافع بن الأزرق لم يكن يرغب في العلم والفهم، وإنما كان يناكف، ويشاكس، ويثير اللغط، لذلك صبر عليه ابن عباس، وأجاب عن جميع أسئلته، وقد بلغت أكثر من مائتي مسألة، ولقد حذف السيوطي رحمه الله منها بعضها، وكأنه ملَّ النقل، فما بالكم بمن كان يجيب؟!!!

وهكذا يظهر لك كيف يصنع السؤال، وطريقة السؤال، وخلفية السائل السياسية، كيف يصنع كل ذلك في الإجابة، وكيف تأتي الإجابة مملوءة بالضجر، ومشحونة بالغضب ، ومختصرة على قدر السؤال دون بيان حتى ولو احتاجت إلى بيان؛ لأن السائل لا يُظهر من الاحترام والتوقير لأهل العلم ما يستحق به البيان والتفصيل.

١- الكامل في اللغة والأدب للمبرد ٣/ ١٦٣ تحت عنوان من أخبار نافع بن الأزرق

المبحث الثالث:

تحليل سؤال عروة بن الزبير وإجابة السيدة عائشة

وأنتقل بالقارئ إلى نمط آخر من الأسئلة ، ونمط آخر من الإجابة ، ليظهر لك الفارق بين سؤال وسؤال، وكذلك الفارق بين إجابة وإجابة، والسائل هنا هو سيدنا عروة بن الزبير، والعالِم هنا هو السيدة عائشة رضي الله عنها، والسؤال هنا حول قول الله تعالى: في سورة النساء: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء: ٣) حيث استغلق المعنى على سيدنا عروة بن الزبير ، فسأل السيدة عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ..)

وراجع السؤال:

لقد جاءت الرواية هكذا أن عروة سأل عن قوله تعالى: "وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ... " (كذا فقط)

وحاول هنا ان تفرق بين هذا السؤال العام وسؤال نافع بن الأزرق لسيدنا عبد الله بن عباس: (أخبرني عن قول الله تعالى كذا ... وهل تعرف العرب ذلك ؟)

حاول أن تراجع بين السؤالين ، فالسؤال الذي هنا سؤال عن الآية عامة، ليترك للعالم استنباط المراد، ويترك له فسحة الإجابة والزيادة عليها وبيان ما يتعلق بها، فإن أجاب عن موطن الحاجة فبها ونعمت، وإن أجاب عن غيره قُبل منه ما يقول ...

وتلك فضيلة عربية، وخلق إسلامي رفيع قل من يتنبه إليه، فمن أخلاق طالب العلم أن يتلطف في السؤال، وأن يمسه مسًّا، وأن يترك للعالم فسحةً في الإجابة. وهذا ما فعله سيدنا عروة بن الزبير ، حين سأل عن الآية بعمومها، فالمجال للعالم

مفتوح ليقول ما يحضره حول الآية ، وكل ما يقوله العالم هنا مقبول، ولا يطلب منه الدليل على كلامه، لأن طلب السائل دليلا على الكلام يعد من سوء الأدب.

وأعود إلى سؤال سيدنا عروة عن قوله تعالى : (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ..) حيث جاء في رواية أخرى عند الطبري أن عروة قال: سألتُ عائشةَ أمَّ المؤمنين فقلتُ: يا أم المؤمنين، أرأيت قول الله : " وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء"؟

وتلك أيضا لم يُنص فيها على موطن السؤال.

فعن أي شيء يسأل سيدنا عروة ؟

- هل السؤال عن المعنى العام للآية ؟

كما يُفهم من السياق : (أنه سأل عن قول الله) أو كما قال: (أرأيتِ قولَ الله) وهذا سؤال عام ، وكأنه يريد الشرح والتعليق.

- أو أن السؤال عن العلاقة بين الشرط والجزاء ؟

لأن الأمر بنكاح النساء مثنى وثلاث ورباع لا يترتب – في الظاهر– على الشرط الذي قبله ، ولا تظهر لكل قارئ المناسبة بين الجملتين، مما يعنى أن هناك خفاءً في تعلق الجواب بالشرط، فكان السؤال عن علاقة (فانكحوا) بقوله: (وإن خفتم ألا تقسطوا)، وكأنه يقول: ما علاقة نكاح النساء بالإقساط في اليتامى؟ .

- أو أن السؤال عن لفظة "اليتامى" في قوله: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى) ويؤيد هذا جواب السيدة عائشة، حيث بدأت بقولها: يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، فإجابة السيدة عائشة: (هذه اليتيمة) تميل بالكفة إلى أن السؤال كان عن لفظة اليتامى، ولو قيل: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتيمة ، لزال اللبس؟.
- أو أن السؤال عن المحذوف الذي يتم به المعنى؟

لأن في الكلام حذفا، والتقدير: وإن خفتم ألا تقسطوا في نكاح اليتامى، ويؤيد هذا أن الجواب يتحدث عن النكاح، مما يستلزم أن يكون الشرط في النكاح، ويكون المعنى: وإن خفتم ألا تقسطوا في نكاح اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء غيرهن ... إلخ فحذْفُ لفظ " النكاح " هو الذي حال دون الفهم لدى سيدنا عروة . كل ذلك وارد ....

لأن سؤال سيدنا عروة فيه عموم ، ولم يحدد فيه موطن الغموض الذي دعاه إلى السؤال .

- والافتراض الأول: وهو أن السؤال عن عموم الآية، وأنه يريد الشرح والتفصيل، قد زال بإجابة السيدة عائشة، وتحليلها.
- أما الافتراض الثاني: وهو أن الغموض ناشئ من خفاء العلاقة بين الشرط والجزاء فيقويه أن كل من يقرأ الآية يتوقف ليحاول الربط بينهما، ويجهد في البحث عن علاقة نكاح النساء بالخوف من الإقساط في اليتامى، حتى قال الطاهر بن عاشور: (إن الأمر بنكاح النساء في جواب شرط الخوف من عدم العدل في اليتامى مما خفي وجهُهُ على كثير من علماء سلف الأمة، إذ لا تظهر مناسبة، أي: ملازمة بين الشرط وجوابه)[1] ثم يؤكد على وجوب وجود علاقة بين الشرط وجوابه فيقول: (إن بين عدم القسط في يتامى النساء وبين الأمر بنكاح النساء ارتباطا لا محالة، وإلا لكان الشرط عبثا)[2].

ولو أننا صرحنا بالسؤال المفترض لقيل: ما علاقة نكاح النساء بالقسط في اليتامى؟ يقول الزرقاني أن (خفاء المراد جاء من ناحية إيجازه، والأصل: وإن خفتم

١- التحرير والتنوير ٤/ ١٥

٢- التحرير والتنوير ٤/ ٢٢٢

ألا تقسطوا في اليتامى لو تزوجتموهن فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم من النساء ... ومعناه أنكم إذا تحرجتم من زواج اليتامى مخافة أن تظلموهن فأمامكم غيرهن فتزوجوا منهن ما طاب لكم)[١].

وهذه الإجابة صرحت بها السيدة عائشة حيث قالت: (يا ابن أختي! هذه اليتيمة تكون في حجر وليها ، تُشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا من النساء سواهن") وبدأت بقولها: "يا ابن أختي" وفي هذا النداء من التلطف ما فيه، وكذا فيه إعذار لعروة في غموض المعنى عليه، لتعلق الأمر بالمجتمع الجاهلي القديم الذي لم يدركه هو أو جيله (فالظاهر من النص القرآني ما كان عليه الحال في الجاهلية؛ فيما يختص بالفتيات اليتيمات، فقد كانت اليتيمة تلقى من وليها الطمع والغبن: الطمع في مالها، والغبن في مهرها – إن هو تزوجها – فيأكل مهرها ويأكل مالها ، والغبن إن لم يتزوجها كراهية لها؛ لأنها دميمة، ومنعها أن تتزوج حتى لا يشاركه زوجها فيما تحت يده من مالها!... وهذه التقاليد الشائهة البدائية، هي التي أخذ الإسلام يبدلها، وينشئ مكانها تقاليد إنسانية راقية)[٢].

- أما الافتراض الثالث: وهو أن يكون الغموض ناشئًا من لفظة "اليتامى" حيث يظهر دلالتها على اليتامى الذكور غالبا كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ البقرة ٢٢٠

١- مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٢/ ٣٤

٢- في ظلال القرآن ٢/ ٤٣

وقوله : ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ النساء ٢

وقوله: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ النساء ٦

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ النساء ١٠

فالآيات كلها المذكور فيها لفظ اليتامى ترسم صورة الذكور بالألفاظ والضمائر ، فاليتامى إخوانكم ، واليتامى إذا بلغوا النكاح فادفعوا إليهم قبل أن يكبروا.... إلخ

أقول إن هذا الغموض في اللفظة زال بقول السيدة عائشة: (هذه اليتيمة) وفي رواية عند الطبراني : عن عروة أنه سأل السيدة عائشة ، فقالت: نزلت في اليتيمة تكون عند الرجل وتكون شريكته في المال فينكحها بدون ما تُعطى، ثم يسيء صحبتها)[1].

هل لاحظت هذا التعقيب، وقولها: نزلت في اليتيمة ... إلخ وكأنها صححت سريعا المفهوم الذي تسرب إلى الأذهان، من أن لفظ اليتامى يدل على الذكور منهم، وخصصت هذا اللفظ هنا لليتيمة، فقالت: هذه اليتيمة، فأزالت اللبس من عنده.

- أما الافتراض الرابع: وهو وجود حذف في الكلام أدى إلى غموض المعنى عند سيدنا عروة ، فيؤيده واقع العرب قديما ، وهذا الواقع لم يطلع عليه سيدنا عروة ، يقول الطبري: (إن العرب قديما كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى ولا يتحرجون من الزنى، فأنزل الله هذه الآية ومعناها: إن خفتم

١- المعجم الأوسط لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني دار الحرمين – القاهرة ، ١٤١- تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ،عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ص٨ / ٣٢٢

الجور في حق اليتامى فخافوا الزنى أيضا، وتبدلوا به الزواج الذي وسّع الله عليكم فيه فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع)[١].

والعجيب أن الطبري جعل هذا التأويل أولى الأقوال بالقبول فقال : (وأولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك ...، قول من قال: تأويلها: "وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فكذلك فخافوا في النساء، فلا تنكحوا منهن إلا ما لا تخافون أن تجورُوا فيه منهن).

وكأن المعنى على التشبيه: اجعلوا خوفكم من ظلم النساء كخوفكم من ظلم اليتامى، حتى إن الإمام الطبري قال: "فإن خفتم الجورَ في الواحدة أيضًا، فلا تنكحوها، ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم، فإنه أحرى أن لا تجوروا عليهن"[٢].

ويعلل لهذا التأويل بقوله –رحمه الله–:

(وإنما قلنا إنّ ذلك أولى بتأويل الآية، لأن الله جل ثناؤه افتتح الآية التي قبلها بالنهي عن أكل أموال اليتامى بغير حقها وخَلطها بغيرها من الأموال، فقال تعالى ذكره: ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا**﴾. ثم أعلمهم أنهم إن اتقوا الله في ذلك فتحرّجوا فيه، فالواجب عليهم من اتقاء الله والتحرّج في أمر النساء، مثل الذي عليهم من التحرج في أمر اليتامى، وأعلمهم كيف التخلص لهم من الجور فيهن، كما عرّفهم المخلص من الجور في أموال اليتامى، فقال: انكحوا إن أمنتم الجور في النساء على أنفسكم، ما أبحت لكم منهن وحلّلته، مثنى وثُلاث ورباع، فإن خفتم أيضًا الجور على أنفسكم في أمر الواحدة، بأن لا تقدروا على إنصافها، فلا تنكحوها، ولكن تسرَّوا من المماليك، فإنكم أحرى أن لا تجوروا عليهن، لأنهن أملاككم وأموالكم، ولا

١- تفسير الطبري ٢/ ٢٧٨.

٢- تفسير الطبري ٢/ ٥٤٠.

يلزمكم لهن من الحقوق كالذي يلزمكم للحرائر، فيكون ذلك أقرب لكم إلى السلامة من الإثم والجور.

ففي الكلام –إذا كان المعنى ما قلنا– متروك استغنى بدلالة ما ظهر من الكلام عن ذكره.

وذلك أن معنى الكلام : وإن خفتم أن لا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها، فكذلك فخافوا أن لا تقسطوا في حقوق النساء التي أوجبها الله عليكم، فلا تتزوجوا منهنّ إلا ما أمنتم معه الجور، مثنى وثلاث ورباع، وإن خفتم أيضًا في ذلك فواحدة . وإن خفتم في الواحدة، فما ملكت أيمانكم ، فترك ذكر قوله: "فكذلك فخافوا أن لا تقسطوا في حقوق النساء" بدلالة ما ظهر من قوله تعالى: "فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم".

فإن قال قائل: فأين جواب قوله:"وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى"؟

قيل: قوله "فانكحوا ما طاب لكم"، غير أن المعنى الذي يدل على أن المراد بذلك ما قلنا قوله: " فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا")[1].

أرأيت كيف أن الآية محملة بالدلالات التي استوجبت سؤال سيدنا عروة ؟ !!

وبهذا تتضح جميع سؤالات سيدنا عروة المقدرة ، والأسباب التي أدت إليها، وأحدثت هذا الغموض عنده، فالغموض حدث إما:

١– بسبب عموم المعنى.

٢– أو بسبب خفاء تعلق جواب الشرط بفعل الشرط.

٣– أو بسبب إطلاق اللفظ المذكر على المؤنث.

٤– أو بسبب غياب الواقع الذي جاءت الآية لتعالجه فحذفت من الكلام ما يفهم منه العلاج. وقد أجابت السيدة عائشة عن كل ذلك.

١– الطبري ٧/ ٥٤١

الخاتمة:

والبحث لا يريد إلا الالتفات إلى طريقة السؤال، وطريقة الإجابة ، ولا يريد إلا التنبيه على أن العلم لا بد له من سياج أخلاقي يحوطه، هذا السياج يحفظ للعِلم منزلته، ويحفظ للعالم قدره، ويتعلم منه الطلاب:

- كيف يسألون ؟
- وأيّ الألفاظ يستعملون عند سؤالهم؟
- وكيف يُلقى السؤال رحبًا واسعًا؟
- وكيف يُوقَّرُ العالم عند سؤاله، ويحفظ له مكانته، فلا يُسأل بقصد الاختبار، أو تلمس الأخطاء، ولذلك جاء في رواية أن عروة حين سأل قال لها:

(يا أمتاه) وراجع ذلك مرات لتدرك ما يحمله هذا النداء من تلطف وتودد، وما يثيره عند العالم من رغبة في استنفاد كل ما عنده في عقل وقلب السائل حتى يكتفي، بل إن ذلك يجعل العالم يتلطف هو الآخر في إجابته ولذلك قالت السيدة عائشة: (يا ابن أختي)[١].

ولم تكتف بالإجابة عن سؤاله ، بل زادته بعد الإجابة المتمثلة في (هذه اليتيمة) فشرحت، وبينت، (هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها، بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره).

ثم زادت على ذلك فذكر الحكم المستنبط من الآية فقالت: (فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن).

١- التوضيح لشرح الجامع الصحيح باب تزويج اليتيمة رقم ٥١٤٠

ثم زادت شيئا لم يسأل عنه عروة، ولم يتطرق له وهو ماذا حدث بعد ذلك، فقالت: (وإن الناس استفتوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد هذه الآية فأنزل الله {ويستفتونك في النساء} ثم شرحت الآية بآية أخرى فقالت: وقول الله تعالى في آية أخرى: {وترغبون أن تنكحوهن} ثم زادت وبالغت في الشرح فقالت في معنى الآيتين: (رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال قالت: فنهوا أن ينكحوا عن من رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء، إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال)[1].

لاحظ كل ذلك، وراجع هذه الإجابة، لتعلم أن هذا الفيض من العلم فتحه حسن السؤال، والإجمال في عرض الطلب، وفرق بين هذا وبين من يقول: (أخبرني عن معنى كذا، وهل تعرف العرب ذلك؟!) لتدرك الفرق بين سؤال وسؤال، وتعلم الفرق بين سائل وسائل. والله الهادي إلى سواء الصراط ، وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه: سعيد جمعة

١– صحيح مسلم رقم ٣٠١٨ وفتح الباري ٨/ ٢٣٩

فهـرس المـوضـوعـات

م	الموضوع	الصفحة
١-	**ملخص البحث** :.....	٦٥٧
٢-	**المقـدمــة** :.....	٦٥٩
٣-	**المبحث الأول:** إلقاء الضوء على شخصيات البحث :.....	٦٦١
٤-	**المبحث الثاني:** تحليل سؤال نافع وإجابة ابن عباس :.....	٦٧١
٥-	**المبحث الثالث:** تحليل سؤال عروة وإجابة السيدة عائشة :..	٦٨٠
٦-	**الخـاتمة** :.....	٦٨٧
٧-	**فهرس الموضوعات** :.....	٦٨٩